الفصل السابع عشر

مصطفى كامل والخديوي عباس الثاني

بدأت نشأة مصطفى كامل الوطنية عام (١٨٩٠م) كما أسلفنا، وتقع هذه السنة في أواخر عهد الخديوي توفيق (قبل وفاته بعامين)، فتاريخ هذه النشأة يدل على أنها غرس إلهام الفقيد وعبقريته؛ إذ لم يكن في ذلك الحين عومل أخرى تساعد على ظهورها، ثم تولى عباس الثاني مسند الخديوية في (يناير سنة ١٨٩٢م) وهو في الثامنة عشرة من عمره، وقلبه مملوء آمالًا كبارًا في أن تسترد مصر استقلالها في عهده، وساءه أن رأى الإنجليز قد وضعوا أيديهم على وزارات الحكومة ومصالحها، فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع، ورسم لنفسه في أول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطاني، وفي الحق أنها سياسة قومية ممدوحة تدل على ميول وطنية طيبة وشجاعة نادرة جعلته وقتًا ما يغامر بعرشه.

وجد الخديوي عباس في مصطفى كامل الزعيم الوطني الشاب الذي استطاع على حداثة سنه أن يحمل علم الجهاد، فأعجب بهذه الشخصية الفذة، إذ وافقت ميوله وآماله في بداية حكمه، فأمدها بالمال والتأييد وقتًا ما، ومن هنا توثقت روابط الود والتعاون بين مصطفى كامل والخديوي عباس في السنوات الأولى من حكمه، ومن واجب المؤرخ المنصف أن يذكر هذه الحقيقة، ويعدها مأثرة لعباس الثاني؛ فإنه قام من هذه الناحية بقسط محمود في تأكيد الحركة الوطنية، والملوك والأمراء في كثير من المواطن لهم فضل على النهضات القومية في مختلف نواحيها الوطنية والسياسية والاقتصادية، أو العلمية والاجتماعية، أو الأدبية والفنية.

ساهم إذن الخديوي عباس في الحركة الوطنية وقتًا ما بماله ونفوذه الأدبي، على أن العلاقة بينه وبين مصطفى كامل قد اعتراها الفتور بعد ذلك، تم التقاطع؛ بسبب عدم ثبات الخديوي على خطة واحدة، واستماعه إلى الوشايات والدسائس، وكانت ميزة الفقيد أنه احتفظ باستقلاله وعلو نفسه تجاه الخديوي، ورأى في استقلال الحركة

الوطنية عنه ما يزيدها قوة وروعة، كتب في هذا الصدد إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد ضمن كتاب له بتاريخ (٥ أغسطس سنة ١٨٩٨م) يقول:

«باريس في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨م

أخي الأمجد الفريد أعزه الله:

أُقبلك ألف قُبْلة، وأهديك أطيب تحية، وصلني بالأمس خطابك الكريم كما وصلني يوم الجمعة الماضية ما طلبته منك، فلك الشكر مزدوجًا، شرف العزيز وسافر، وتشرفت بمقابلته مرات -هذا الخبر لك وحدك- وعلمت منه أمورًا جمة سرتني للغاية، وشرحت صدري، وحققت لي أن الأمل ملء فؤاده، وأن ليس لليأس عليه سلطان، وسأقابله مرة أخرى في الشهر الآتي، وقد قابل هنا وهناك كل ذي شأن وكل عظيم، واستمال من لا يستمال، فله منا الود والإخلاص والحب الحقيقي، وإنه لجدير بأن نتفاني في محبته، ولم أكلفه مدة وجوده ولم أطلب منه شيئًا، ولو أن سفري لألمانيا سيكلفني كثيرًا، وذلك لأني لا أود أن أجعله يرتاب في إخلاصي الخالص له، وسأبذل جهدي بعد عودتي للوطن المحبوب في أن أكون مستقلًّا غاية الاستقلال لنزداد عنده مكانة ونفوذًا».

وهذا الخطاب (الذي نشرنا صورته بالزنكجراف ص٣٤٤) يلقي شيئًا من الضوء على علاقة مصطفى كامل بالخديوي، ويدل على إخلاص الفقيد وإبائه وعلو نفسه، وليس يخفى أن الخديوي قد فترت صلته بالحركة الوطنية، وتزعزعت ثقته فيها بعد حادثة فاشودة، وضعف أمله في الجلاء، فأخذ في التحبب إلى الاحتلال والنزول على إرادته، وبعدت الشقة تبعًا لذلك بينه وبين الفقيد، على أن مصطفى كامل كان يرى بثاقب نظره ألا يقع الانقسام بين الأمة والخديوي فيستفيد الاحتلال من هذا الانقسام، كما استفاد من الخلاف الذي شجر بين توفيق والعرابيين، لذلك كان يعمل دائمًا على إيجاد جو من التفاهم بين الخديوي والأمة، ويدعو إلى تعلق الأمة بالعرش؛ على الرغم من اختلاف وجهتي نظرهما.

(كتاب الفقيد إلى فريد بك في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨)

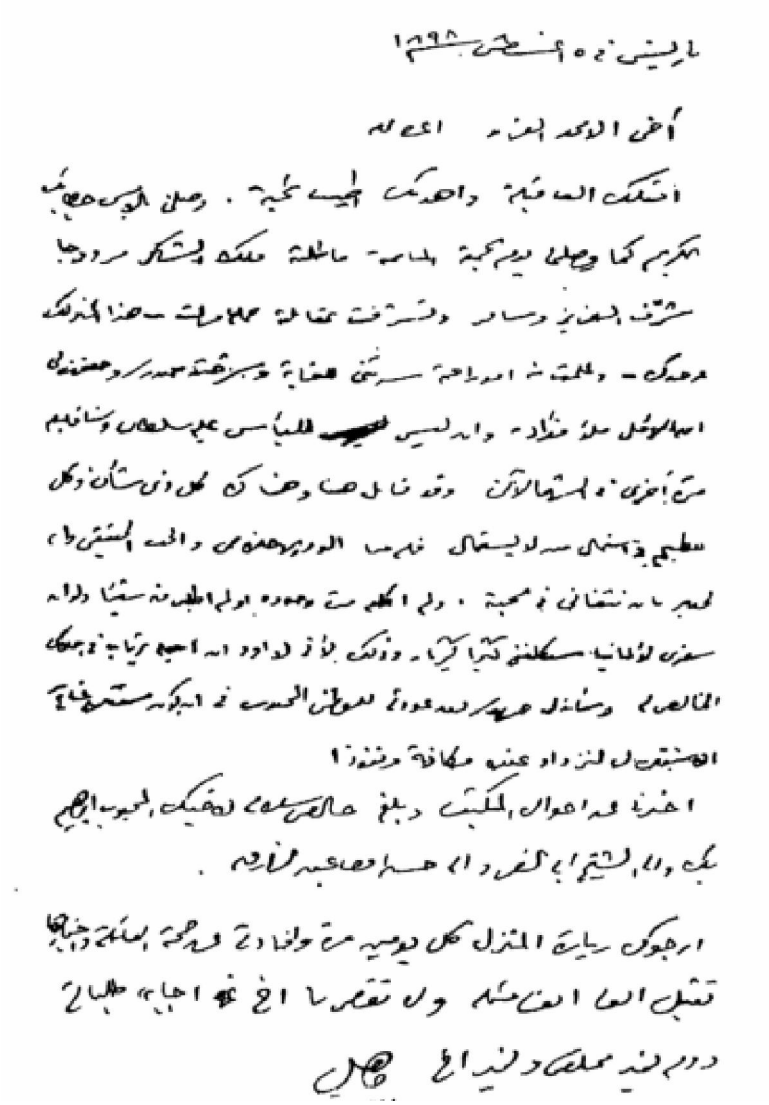

قطع علاقته بالخديوي

خطاب (٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤م)

ثم جاء الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا في (إبريل سنة ١٩٠٤م)، وظهر انحياز الخديوي بشكل واضح إلى الاحتلال، فرأى أن يقطع علاقته به، وأعلن في اللواء[١] أنه اعتزم الابتعاد عنه حتى لا يظن أحد أن عليه شيئًا من المسئولية في جهاده السياسي؛ قال في هذا الصدد:

«إنَّ المخلص في عمله يجب أن يؤدي الواجب عليه ولو ضحى في سبيله مصلحته الذاتية وأعز ما تميل إليه نفسًا».

وقال:

«وإني لا أشك في أن كل قارئ -بل كل مصري- عرف خطتي وخبر مبادئي يدرك حقيقة مسعاي ومقصدي، ويعلم أني لم أطلب بذلك إلا خدمة البلاد وعرش الخديوية بالثبات الذي لا تتغلب عليه الأيام، والعقيدة الراسخة التي قد تتحول الجبال وهي لا تتحول».

وقال في حديث له في جريدة (البول مول جازيت) الإنجليزية في (ديسمبر سنة ١٩٠٦م): «لما رأيت رغبة سموه في توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الإنجليز وحكومته، وجدت من واجباتي أن أكون بعيدًا عن سموه»[٢].

وقد أرسل عقب عودته من أوربا سنة (١٩٠٤م) الكتاب الآتي إلى الخديوي، يصارحه فيه بموقفه حياله؛ قال:

«مولاي:

---

(١) عدد ٢٥ أكتوبر سنة (١٩٠٤م).

(٢) «اللواء» عدد ٢٦ ديسمبر سنة (١٩٠٦م).

تشرفت في ديفون بالمثول بين يدي سموكم يوم ٢٧ أغسطس الماضي (سنة ١٩٠٤م) ورفعت إلى مقامكم السامي أن الحالة السياسية الحاضرة تقضي علي بأن أكون بعيدًا عن فخامتكم، وأن أتحمل وحدي مسئولية الخطة التي أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين؛ منعًا لتكدير خاطركم الشريف، ودفعًا لما عساه يقع من الخلاف والنزاع.

وقد رأيت يا مولاي بعد التفكير أنه صار من المحتم علي القيام بهذا الواجب، وأنه أول عمل يلزمني تأديته عقب عودتي إلى الوطن العزيز؛ لأن الإنجليز أظهروا في خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنابكم العالي ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم في الصباح والمساء بجانب سموكم داعيًا لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتدخل جديد غير محمود.

وإني بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التي تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحي إياها، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودي الذي نالته مدام جولييت آدم من لدنكم، وتصريحهم بأن إنجلترا لا تسمح لجنابكم العالي بإكرام من يعاديها، وإدعائهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم، أعد نفسي مقصرًا تقصيرًا حقيقيًّا في تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا أبقيت صلتي بسموكم على حالها وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو إليه الوطنية والسياسة.

وإني أرجو أن يعتقد مولاي -حفظه الله- أني لم أقصد إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين، ويدخلون اسمكم الكريم في كل حادث، غير حاسبين للرأي العام حسابًا، وغير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال البلاد، وأنه يجب أن يكون على الدوام محاطًا بالاحترام التام والإجلال العام؛ ليقاوم القوتين المحاربتين له؛ ألا وهما الاحتلال والزمان.

وإنه ليحلو لي أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتي خادمًا لتلك المبادئ الوطنية العالية التي كنتم سموكم أول الداعين إليها والمنادين بها، وأن تزداد كل يوم اتساعًا الهوة التي بيني وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء.

وإني أتشرف يا مولاي بأن أرفع إلى سدتكم العلية واجبات الشكران على جليل التفاتكم وسامي رعايتكم، وأقدم إلى المقام الرفيع أسمى ما يليق من التجلة والإعظام».

مصر في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤م

مصطفى كامل

وهذا الكتاب يدل على إخلاص الفقيد في جهاده، وهو لعمري صفحة مشرقة من الشجاعة الأدبية؛ لأن مجاهرة الخديوي وهو وقتئذ رئيس البلاد الشرعي بقطع علاقته به، ومقاومة الاحتلال وهو في أوج سلطانه، كل أولئك عمل يقتضي حظًّا كبيرًا من الجرأة والاستقلال، ولا يقدم عليه إلا من تغلبت فيه الشجاعة والوطنية على كل اعتبار للمصلحة الشخصية.

وفي الحق أنه لم يكن ممكنًا أن يستمر مصطفى كامل على اتصاله بالخديوي؛ لأن عباس الثاني قد عرف عنه عدم الاستقرار في الميول والخطط والآراء، وقد تغيرت نفسيته كثيرًا من يوم أن تراجعت فرنسا في حادثة فاشودة، وبخاصة حين عقدت وإنجلترا ذلك الاتفاق الودي الذي تعهدت فيه بأن لا تضع العقبات أمام إنجلترا في مصر، فهذه الصدمات السياسية التي لم تنل من مصطفى كامل قد كان لها تأثيرًا عكسي في نفس الخديوي، وألقت اليأس في قلبه من نجاح سياسة مقاومة الاحتلال، فانصرف إلى حياة المال والمتاع، والمال كثيرًا ما يفسد النفوس ويغير من الطباع.

وقد ظهر استقلال مصطفى عن الخديوي في استهجانه إحالة حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي إلى المعاش؛ إذ أظهر أسفه على حرمان هذا المنصب السامي من رجل اشتهر بالنزاهة والكفاءة، وقد كانت إحالته إلى المعاش بأمر الخديوي بسبب موقفه الشريف في الحادثة المعروفة بحادثة مشتهر؛ وخلاصتها أن أحد الماليين اليونانيين الذين لهم صلة بالخديوي (هو المسيو زرفوداكي) عرض على ديوان الأوقاف أخذ أطيان له بالجيزة مقابل تفتيش مشتهر التابع للأوقاف، والذي كان اتفق مع الخاصة الخديوية على شرائه، وعرضت صفقة البدل على مجلس الأوقاف الأعلى، وكان حسن باشا عاصم من أعضائه، فرفض إقرار الصفقة برغم أنها كانت تهم الخديوي، فكان موقفه وهو رئيس الديوان دليلًا على استقلاله ونزاهته[1]، وكان انتقاد الفقيد إحالته إلى المعاش تحديًا للخديوي ومعالنة له بالعداء.

وانتقد أيضًا وقوفه تحت العلم البريطاني في حفلة استعراض الجيش الإنجليزي بميدان عابدين في (نوفمبر سنة ١٩٠٤م)، ولم يكن يحضرها من قبل، حتى اضطرت المعية إلى إصدار بلاغ رسمي تنسب فيه حضور الخديوي هذه الحفلة إلى المصادفة (انظر ص١٨٩)، وانتقد انصرافه إلى مصالحه الخاصة في مقالة له بعدد (١٠ إبريل سنة ١٩٠٤م) من اللواء، لمناسبة اعتراضه على طلب المجلس النيابي من الإنجليز ووجوب طلبه من الخديوي؛ إذ قال:

«إنَّ سمو الأمير هو المطالب وحده بإعطاء مصر مجلسًا نيابيًّا، وبرفع صوته في هذا الشأن، والجهاد في سبيله حتى تناله الأمة، أما الذين يعلنون بأعمالهم وأقولهم أن سمو الأمير أصبح عديم الحول والقوة وأن لا ملجأ للمصريين إلا إنجلترا والإنجليز، وأنه يجب عليهم ألا ينتظروا من أميرهم شيئًا، ويشيرون على سموه بإهمال أمته وصرف أوقاته وكل مجهوداته لمصالحه الخاصة دون المصالح العامة، فهم ألد أعداء البلاد، وهم الذين يمكنون المحتل فعلًا ويهددون عرش الخديوي حقيقة».

(١) «اللواء» عدد ٢٧ نوفمبر سنة (١٩٠٤م).

ومن يوم (٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤م)، وهي آخر مقابلة له بالخديوي، وانقطعت علاقته به، وكان انقطاعه عنه مما زاده منزلة ورفعة، إذ ظهر استقلال الحركة الوطنية عن الخديوي أكثر من ذي قبل، ولما أصدر الفقيد جريدتي ليتندار إجبسيان الفرنسية وذى إجبشيان استاندرد الإنجليزية في (أوائل سنة ١٩٠٧م) حنقت الصحف الإنجليزية من ظهورهما واتهمت الخديوي بالمساهمة في رأس مالها، فنشر الفقيد ردًّا على هذه المفتريات أسماء المساهمين في رأس مال الجريدتين ومقدار ما اكتتبوا به، فكان هذا الإعلان قاطعًا في إثبات أن لا علاقة للخديوي بظهور الجريدتين، ولا صلة له بهما.

ولما استقال اللورد كرومر في (إبريل سنة ١٩٠٧م) وخلفه السير إلدون جورست اشتد انحياز الخديوي عباس إلى السياسة البريطانية، وظهر هذا التحول في حديثه مع المستر ديسي الذي نشرته جريدة الديلي تلغراف في (مايو سنة ١٩٠٧م)، إذ نفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال، وذكر اللورد كرومر بالخير، وصرح بأن المعتمد البريطاني لا يستطيع حكم مصر وحده، وأنه مستعد للتعاون معه، وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال، وأن الاحتلال البريطاني أفضل من أي احتلال آخر.

ومعنى هذا الحديث في مجموعه أن الخديوي يصرح بأنه يرغب مشاركة المعتمد البريطاني في حكم البلاد حكمًا مطلقًا، فلم يحجم الفقيد عن انتقاد هذا الحديث انتقادًا حازمًا، برغم صدوره من الرئيس الأعلى للدولة؛ قال في هذا الصدد:

«مما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ كله أن تصريحات الجناب العالي لا تقيدنا بأي حال من الأحوال؛ لأن مركز سموه غير مركزنا، على أن كل مصري صادق الوطنية لا يقبل مطلقًا أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديوي بمفرده أو بيد المعتمد

البريطاني، أو بيد الاثنين معًا؛ بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنائه، وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية»[١].

وقال في موطنٍ آخر:

«قد قلنا مرارًا: إنَّ سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية، وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال، فهو إن قال كلمة في صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه، واستمال أمته إليه، وإن عمل ضدها أضر بنفسه وبعرشه، ونفر أمته منه؛ ولكنه في الحالتين لا يستطيع الإضرار بهذه النهضة؛ لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود، ومثل هذه النهضة لا يضرها إنسان مهما كان قويًّا عظيمًا»[٢].

وقال: «إنَّ مصلحة الشعب المصري تقضي بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناب العالي، حتى يعلم العالم كله أنَّ المصريين يطالبون بأنفسهم وطوعًا لعواطفهم وشعورهم، إصلاح حالة بلادهم وترقية شئونهم ومنحهم الدستور، وأن هذه المطالب ليست صادرة بإيعاز من كبير أو أمير».

وقال في مقال آخر: «لقد اتهموا الحزب الوطني تارة أنه موحى إليه من الدولة العلية، وطورًا من ألمانيا، وتارة أخرى من سمو الخديوي، وقد سقطت التهمتان الأوليان من قبل، وهذه الثالثة قد سقطت الآن معها، فحان الأوان أن نهنئ أنفسنا».

وكتب من (نيوهوزن) في (٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧م) إلى المغفور له محمد بك فريد (نشرناه بالزنكجوغراف في الصفحة التالية) يدل على مبلغ استيائه من خطة الخديوي، وتحبيذه الابتعاد عنه، قال:

---

(١) «اللواء» ٢٦ مايو سنة (١٩٠٧م).

(٢) «اللواء» ٢٧ مايو سنة (١٩٠٧م).

(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧)

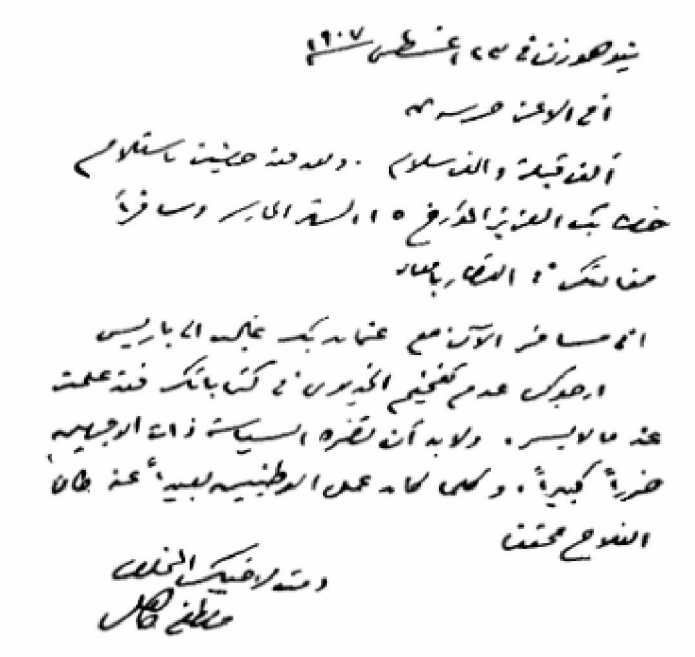

«أخي الأعز حرسه الله:

ألف قبلة وألف سلام، وبعد فقد حظيت باستلام خطابك العزيز المؤرخ ١٥ الشهر الجاري، وسأقرأ مقالتك في القطار بإمعان لأني مسافر الآن إلى باريس.

أرجوك عدم تفخيم الخديوي في كتاباتك، فقد علمت عنه ما لا يسر، ولا بد أن تضره السياسة ذات الوجهين ضررًا كبيرًا، وكلما كان عمل الوطنيين بعيدًا عنه كان الفلاح محققًا».

فهذه الأقوال التي كتبها في الصحف أو رسائله الخاصة تدل على عقيدة راسخة في الواجب الوطني الذي اضطلع به، وترسم لنا صورة رائعة لتلك النفس الكبيرة التي سمت بالحركة الوطنية، وجعلته قوية بذاتها، مستقلة بمبادئها، محتفظة بكرامتها، قوامها الإخلاص لمصر والنهوض بها إلى الاستقلال والحرية.

في مذكرات الخديوي عباس الثاني عن مصطفى كامل

توفي الخديوي عباس الثاني سنة (١٩٤٤م) بجنيف، وقد دوَّن مذكرات مطولة قبل وفاته عن حياته وسني حكمه، نشرت صحيفة «المصري» فصولًا منها سنة (١٩٥١م)، وقد تناول فيها الحديث عن مصطفى كامل وعلاقته به، وأثره في بعث الحركة الوطنية، ويطيب لي أن أورد هنا ما دوَّنه عن الفقيد في هذه المذكرات الهامة.

قال تحت عنوان «مصطفى كامل»:

«كان مصطفى كامل هو الذي بدأ نشر الفكرة الوطنية في شباب مصر، وهو الذي هز الروح المصرية فأيقظها من غفوتها.

كان محيي الوطنية المصرية، ورسول تلك الفكرة التي كانت قد خُنقت في مهدها؛ ولكنها ظلت تسعى إلى الأمام، وقد كسب لعقيدته ولحزبه أغلبية الموظفين، وأعيانًا ومثقفين، وإجماع الطلبة والعمال، كان فتى خلع عليه الشباب كل نعمة، بما فيها نعمة الوهم المقدس، وكان قد آثر الحياة الروحية على الحياة المادية، وكان حديث العهد بذلك البلد القديم الذي لم تكن هالات المجد ترفع فيه إلا على القبور، ولا يعرف شيئًا عن الوضاعة والمساومات السياسية.

كان بسيطًا ومستقيمًا، وتحت مظهره اللطيف كانت تختبئ روح متفتحة لكل الأحاسيس، وقلب حساس لكل ألون الرقة والحنان، وزانه الله بالحجى، وكانت بلاغته واضحة وحارة، وكان أسلوبه الرشيق، العامر بالصور، يتنقل من البساطة الإنجيلية إلى بلاغة الخطيب المصقع العظيم، وقد أوتي موهبة الإقناع وسحر الإشعاع الذي يؤتاه الحواريون والأنبياء، وكان الحب الذي يكنه لوطنه ينبع من حماسة لا تفقده سيطرته على عقله.

وليس من شأني أن أسجل حياة ذلك الحواري الرفيع الذي كانت براءته الطاهرة -بقدر ثقافته وجدارته- قد فتنت به الجماهير؛ ولكني لا يسعني أن أرد نفسي عن توجيه تحية الإجلال إلى ذكرى وطني أدين له بساعات فائقة الجمال، ومن المؤكد أنه كان في بعض الأحيان يضايقني، فإننا على اتفاقنا الدائم في الهدف، لم نكن دائمًا متفقين على الوسائل.

وكان شباب الزعيم الوطني يسمح له بأن يسترد خطاه ويتطور في لطف حول الأخطاء التي يحفل بها الشباب، وقد أوشك مصطفى كامل أن يغدو ذات لحظة ضحية الزهو الذي يتربص بكل أولئك الذين يقودون الجماهير ببلاغتهم، ويحسون أنها معلقة بأفكارهم، وقد كان مصطفى كامل -فيما عدا موهبته الفذة كخطيب وكاتب، وطموحه المشروع- على خصال وطيدة كانت تكفل التقدير حيثما ذهب، كانت له موهبة الملاحظة التي نماها اختلاطه برجال السياسة في مصر وفي الخارج، وكان يفهم، وقد درس وعاش في أوربا. إن بلدًا طامحًا إلى الازدهار يجب أن يسهر بعناية على علاقاته مع البلاد الأجنبية، ولم يهمل مطلقًا ذلك الرأي، فكان صوته بذلك يذهب بعيدًا، وكان يسمع فيما وراء النيل، وكان قد عرف كيف يهيئ لنفسه في أوربا، وفي فرنسا خاصة صداقات فعلية، وفي أخريات حياته كان صوته قد بدأ يسمع في إنجلترا.

وكان نافعًا لوطنه، وكنت أقدره حتى عندما كان يستحيل عليَّ أن أتبعه. إن مهمة الحكم ليست دائمًا بالسهلة، ففي الوقت الذي يشاء الحاكم أن يطيع صوت قلبه، يجد نفسه مضطرًّا إلى الإذعان لحق الدولة، ولقد كان مصطفى كامل حرًّا وكنت أمنحه تأييدي المطلق، كان يقول بدلًا مني ما يجب قوله، وما لم يكن في الوسع قوله باسمي.

وإذا كان قد حدث في بعض الأحيان أن اتجاهًا غير صائب قد عكر صفو عطفي الذي كان في أغلب الأحيان يذهب إلى حد التعاون معه، فإن سوء التفاهم كان دائمًا يزول سريعًا؛ إذ يطرد سحائبه الولاء المتصاعد من قوله ومن عمله. إن فضل

مصطفى كامل العظيم هو أنه قد حدد المثل الأعلى للأمة، وشجع الجماهير على السعي إلى ذلك المثل الأعلى؛ ولكن وطنيته كانت تبلغ أحيانًا حد التصلب، وأكبر ما كنت آخذه عليه أنه ظل مبتعدًا بنفسه وبإرادته عن جميع أولئك الذين كانوا يكافحون حول الراية نفسها ولنفس القضية، وكنت قد حلمت بتقرب بين الشيخ علي يوسف ومصطفى كامل؛ ولكني لم أستطيع مطلقًا أن أحقق هذا الأمل؛ إذ كان يفرق بين هذين الرجلين نوع من الكبرياء المبالغ فيها، ولقد كان يسعهما أن يتفاهما دون أن يتحابا، وكان لهما من المزايا والفضائل ما يكفي لكي يظفر كل منهما من صاحبه بالتقدير.

لقد كان مع مصطفى كامل الشباب، والطلبة، والمستقبل، على حين كان الشيخ علي يوسف يتمتع بالنفوذ على أصحاب المراكز الاجتماعية الهامة، لو أنهما تضامنا! أي شيء كنا نعجز عن تحقيقه، لو أننا وضعنا حماسة أحدهما في خدمة تجربة الآخر!

وإذا كان مصطفى كامل قد تجلى في أغلب الأحيان في صورة الحواري، فليس في هذه الدنيا -مع الأسف- سياسة بلا أخطاء، وما كان مصطفى كامل إلا بشرًا، ومع ذلك فلقد ترك عند موته نموذج حياة كرسها صاحبها كلها لتحرير مصر، وإن جدارة زميله علي يوسف -لو أنه كان قد عرفه- ما كانت لتقلل من شأنه، وما يجدر أن يتشجر الناس على المجد، عندما يخشى أن يكون الوطن نفسه فدية المعركة.

وكان هذا المتضرم هوى ببلاده، الذي قدر له أن يموت في زهرة العمر قبل أن يتاح له الوقت لكبح جماح حماسته بقليل من التجربة، قدحصل على معظم ما تمنى من رضاء ذلك النجاح العجيب لرسالته الوطنية، وما من ريب في أنه قد ثمل بعض الثمول بنجاحه، ولو أن ذلك الثمول كان قد اتحد بحكمة الشيخ علي يوسف الشرقية، لكان ذلك قد خدم قضية البلاد فوق ما خدماها متفرقين.

كان مصطفى كامل كلما وسمه العمر بطابعه، يغدو أكثر قلقًا وأكثر إحساسًا بشخصيته، وكانت مبادئه السياسية -بعد أن عانت بضعة تعديلات- قد غدت

مصرية دقيقة في مصريتها، وإذا كان قد تكلم أحيانًا عن تركيا أو وجه إلى أوربا نداءاته المجلجلة فما كان ذلك إلا ليخفي ثورة لو أن تلاميذه لمحوا منها شيئًا لكان في ذلك ما أفقده سلطته.

ولعل التعهدات المتتابعة التي طبعت نشاطه كانت قد نسقت، ولم يكن يريد أن يقطع صلته بالماضي دون فترة انتقال، وكان يخشى أن يعرض النتائج التي حصل عليها للخطر؛ إذ هو بدا في صورة المجدد المبالغ في تجديده.

وأيًّا ما كان الأمر، فإن أساس تعليمه لم يكن في الحقيقة عصريًّا مفرطًا في عصريته؛ بل لعل أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقي مما يعتقد أكثر الناس.

كان قد جرد وطنيته من كل رداء ديني؛ ولكنه ظل متدينًا ومتعلقًا بروح القرآن، أمَّا علي يوسف فإنه برغم ثقافته الدينية البحتة، قد عرف كيف يتلخص من الطابع الإسلامي الذي بقي عند مصطفى كامل، ومع أنه تربى في أوربا، فلقد كان يستخدم النظريات الغربية كوسيلة؛ ولكنه لا يعتبرها غاية في ذاتها.

ومات الزعيم الشاب للاستقلال المصري دون أن يحقق خطته، وربما دون أن يكون قد حدد خطوطها الأخيرة، لقد كان على الأخص محيي الروح الوطنية.

وكانت جنازته رائعة، ومرت مصر عن بكرة أبيها أمام جثمانه، وأقبل من القرى النائية ألوف وألوف من تلاميذه ليشيعوا النعش الذي حمل زعيمهم إلى مثواه، أولئك الأنصار الذي غدوا، وقد مات الزعيم الخلفاء على تراثه الوطني.

كانت روح مصطفى كامل تلهم شعبًا، وقد صار هذا الشعب وراث مثله الأعلى».

وقال الخديوي عباس في موضعٍ آخر:

«لقد قيل في أيام كفاح مصطفى كامل العنيفة: إني كنت خصمه، وقيل أيضًا: إنه كان صنيعتي، وليس هناك ما هو أشد بعدًا عن الحقيقة من هذا الذي قيل. إنَّ

مصطفى كامل لا ينتمي إلا إلى نفسه، ولقد كان رجلًا من الصفوة، عاش بإيمانه، ومات بإيمانه؛ أما أنا عباس حلمي، فإني ما كنت أبدًا خصمه، وما كانت أبدًا وحيه، ولم يكن صنيعتي؛ بل رائدًا وجنديًّا يحارب تحت راية مثله الأعلى الذي كان العجائز يرونه زندقة وإلحادًا ويتبعه الشباب في حماس فائر، وإن قلمه البليغ، و(لواءه) المناضل، قد صارا إحدى مفاخر عهدي.

ومع أن كل شروع في عمل بالمعنى الذي حلم به مصطفى كامل كان يعترضه دائمًا وجود الوكلاء البريطانيين وإرادتهم، فإن عهد حكمي كله قد تأثر بمجهوده الوطني، وأذكر على سبيل المثال إنشاء الجامعة المصرية الجديدة التي وضعتها تحت رياسة عمي الأمير أحمد فؤاد، لمنحها استقلالًا حقيقيًّا، فهي الدليل الذي لا ينقض على ذلك؛ لأنها كانت من وحيه، فإن أول من فكر في الجامعة هو مصطفى كامل».

وقال في موضع آخر:

«إنَّ الروح الوطنية قد تحددت بوجهٍ خاص في عهدي، وقد ظفرت تلك الروح في إخلاص أكثر زعمائه جلدًا وبلاغة -مصطفى كامل- وفي موهبته بما آتاه برنامجًا محددًا.

يومذاك كنت أمسك بيدي محركات عنصري الوطنية المتفرقين المتنافرين الحزب المحافظ، حزب أعيان البلاد الذي يأتمر بأمر الشيخ علي يوسف، وحزب الشباب المتطرف بزعامة مصطفى كامل، وكان معنى الوطن عند كل من هاتين الجماعتين مختلفًا عن الآخر، فهما لا تستطيعان تحقيقه في صورة موحدة، ولا في لحظة واحدة.

وقد أدركت بعد قليل استحالة ضم الفريقين، وصار لزامًا علي أن أسعى عند كل منهما سعيًا خاصًّا به، وكان هذا ما جعل البعض يقول: إني كنت أقوم بلعبة مزدوجة.

ولكني على العكس من ذلك، كنت أبغي أن أتجنب -ما وسعني ذلك- ترك هاتين القوتين المتنافستين إحداهما إزاء الأخرى، وأن أحد من الانشقاقات في كل منهما، مستدركًا ما عساه أن يحدث من اختلال.

وكنت أحرص قبل كل شيء على ألا تبدر مني بادرة تفضيل قد تثير غيرة تجعل أحد الحزبين ينهض لعداء الآخر، وكان تفضيلي مع المعتدلين؛ ولكني كنت أفهم المتطرفين، ولم أستخدم لنفسي لا هؤلاء ولا هؤلاء؛ ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا يرفضون مبدأ الاحتلال.

وقد كان موقفي سببًا في أن يقال: إني لم أكن مخلصًا لا للوطنيين ولا للإنجليز، ولكن تقلباتي الظاهرية لم يكن لها غير دافع واحد، وهو دافع شخصي على كل حال، لم أكن رفيقًا بالحزب الوطني عندما كان يندفع إلى شيء من العدوان؛ ولكني لم أكن رفيقًا أبدًا ببريطانيا العظمى التي كانت تنشب مخالبها بإطراد كل يوم في الأرض المصرية، وهذا الدافع الوحيد كان حبي لبلادي».

وقال عن حادثة (دنشواي):

«لست أبغي أن أنشر هنا من جديد فصول تلك المأساة، فإن من المعروف أن الضباط الإنجليز المشتركين في المناورات كانوا ينتهزون فرصة أوقات فراغهم كي يخرجوا للصيد، فيقتلوا في القرى الحمام الأليف، ويحملوه ملء الحقائب، وأن الأهالي قد قاموا، وتبادل الفريقان الضربات، فلاذ أحد الضباط بالفرار خلال المزروعات، ومات متأثرًا بضربة الشمس، وعاد بعض الجنود إلى القرية ليقتلوا المزارعين الوادعين، قبل أن يحملوا النبأ إلى رئيسهم.

ولم يكن في الأمر إلى ذلك الحد غير حادث يؤسف له حقًّا؛ ولكنه ما كان لينتهي بتلك المذبحة الفظيعة التي تلت المحاكمة التي قامت بها المحكمة الخاصة لو أنه عولج في اتزان، ولم تخن الجميع أعصابهم، وكان كبار الموظفين الإنجليز في إجازة، كما كان الجنرال قائد القوات غائبًا، وأكبر الظن أن ذلك الذي كان يقوم مقامه كان

متحمسًا ومتطرفًا، فقد أضفى على الحادث ثوب المأساة، كما أن ممثل اللورد كرومر لم يحسن فهم المسئوليات التي أخذها على عاتقه.

إني ليستثير ألمي أن أفصل القول في هذا الحادث الذي حلم إلي البرق نبأه أثناء استشفائي في فيينا، فلقد هز نفسي أعنف هزة، سواء من جهة الوقائع التي رفعت إلي، أو من جهة موقف الحكومة المصرية.

لقد كان الواجب أن يقبل سوء تصرف الإنجليز ووحشيتهم في الكفة الأخرى بوطنية المصريين وحرصهم على كرامتهم.

وليس مما يغتفر للإنجليز بلا ريب أنهم شكلوا محكمة استثنائية، كي يحاكموا فلاحين وادعين لم يرتكبوا جرمًا إلا الدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم، ولكن جرمهم في ذلك لا يقاس بجرم أولئك المصريين الذين قبلوا بغير اعتراض الاشتراك في تلك المحكمة، وأباحوا للدولة المحتلة تلك الترضيات التي ما كانت لتجرؤ على المطالبة بها لو أنها أحست من جانبهم مقاومة بسيطة.

إن الوزراء المصريين لم تبدو منهم بادرة للتخلص من ذلك الشرف المحزن، شرف محاكمة مواطنيهم، ولم تند عن شفاههم كلمة طيبة واحدة.

لقد ضحوا للأجنبي دون احتجاج ودون تردد، بأولئك التعساء الذين عهدوا إليهم بمصيرهم، والذين كان عليهم أن يستمعوا إليهم قبل الحكم عليهم، ولم يشر أحد إلى الظروف المخففة لعمل كان أكثر الجرائم استحقاقًا للعفو، وكان فوق ذلك قد تم من قبل الانتقام له.

ولا يفوتني أن أسجل أن المقال الذي نشره مصطفى كامل في جريدة «الفيجارو» الباريسية في (١١ يولية سنة ١٩٠٦م) قد أحدث دويًّا عظيمًا، وأثار ضمير العالم.

لقد كان ألمي لذلك الأمر كبيرًا وفادحًا، وكم عكر صفوي ليال طويلة، ولم يكن الاندفاع الإنجليزي وضعف الحكومة المصرية قد سمحا لي بفرصة التدخل إلى وقت القضية.

ولقد فعلت المستحيل لتعويض ضحايا حادث دنشواي الذين لم يشنقوا، ولكن اللورد كرومر أبى قائلًا: إن في ذلك مساسًا بشرف الجيش البريطاني، وكان علي أن أنتظر السير إلدون غورست كي أصلح من أثر ذلك الشر.

وكانت لندن بعد حادث دنشواي المحزن قد انتهى بها الرأي إلى استدعاء اللورد كرومر.

كان الإنجليز قد أدركوا آخر الأمر -كلما جرت الأحداث، ولما أثارته الدعاية الوطنية عند الشعب من حركة لا تقاوم- أن يومًا سيأتي فيغدو جيشهم الذي يحتل مصر غير كاف للمحافظة على الأمن في البلاد، أو لحماية نفسه من هجوم خارجي.

فلنطو هذه الصفحة، ويكفي أن الصحافة الإنجليزية والتاريخ قد فضحا منذ ذلك الحين سفاحي دنشواي؛ أولئك الذين سلموا المتهمين المساكين للجلادين، خارج القانون، وخارج الإنصاف والعدالة، ولشتى صنوف التنكيل».

وهذا الذي كتبه الخديوي عباس الثاني في مذكراته عن مصطفى كامل لصفحة فخار للزعيم العظيم.